الفصل الثاني

بلاد الرافدين

تسلسل زمني

أواخـــر الألـــف الخـــامس ق.م	السومريون في بلاد الرافدين
نحـــــو عـــــام ٣٥٠٠ ق.م	أقدم الكتابات الرمزية
نحـــــو عـــــام ٣٠٠٠ ق.م	بداية التاريخ المدون في سومر
مـــن ٢٣٥٠ حتـــى ٢٢٩٥ ق.م.	صارغون ملك أكاد
نحـــــو عـــــام ٢٠٠٠ ق.م	ملحمة جلجامش
مـــن ١٧٢٨حتـــى ١٦٨٦ ق.م	حمورابي ملك بابل
نحـــــو عـــــام ١٢٠٠ ق.م	قوة الآشوريين في أوجها
نحـــــو عـــــام ٩٠٠ ق.م	المملكة الآشورية الجديدة
مـــن ٦٦٨ حتـــى ٦٢٧ ق.م	آشور بانيبال
عـــــــــــام ٦١٢ ق.م	حريق نينوى
مـــن ٥٨٦ حتـــى ٥٣٨ ق.م	نبوخذ نصر الثاني
نحـــــو عـــــام ٥٥٠ ق.م	زرادشت
مـــن ٥٥٩ حتـــى ٥٣٠ ق.م	سيروس الأكبر، مؤسس مملكة فارس

«تمتع بين أحضان المرأة»
من أقدم قصص الحب في التاريخ أسطورة إنانا وتموز

أحبت إنانا (عشتار)، إلهة الأرض المرحة، أخاها تموز حباً جارفاً. إن هذا الاتحاد الرقيق الذي يجمع الأخ وأخته ويجذب، بولع، أحدهما إلى الآخر في عناق انتشائي لا ينفصم طوال أشهر الشتاء الطويلة، لا يمت إلى عالمنا بصلة. بيد أن سكان سومر الغنية، التي يرويها دجلة والفرات، لم يشعروا، هم أنفسهم، بمباهج هذه المتعة الكاملة ولذائذها، إذ كانت انعكاساً لمخيلتهم وصورة لذاكراتهم. لم يكن تموز وإنانا وجهين مثاليين ونموذجين سماويين لنساء سومر ورجالها، فحسب، بل كانا أيضاً رمزين إلهيين للعملية الجسدية التي تهب السعادة والمتعة.

كان سكان سومر يتوجهون بالدعاء إلى إنانا بوصفها الإلهة «التي تفتح أرحام النساء» إذ كان على جميع النساء، امتثالاً بإنانا وإقتداءً بها، أن يتهيأن لعرض فروجهن، عن رضا، لأنظار الرجال لإيقاظ غريزتهم وحثهم على التمتع بأجسادهن الراضية والمنذورة لهم، وكان على الرجال أن يحتذوا حذو تموز، إله نمو النبات وتكاثر الحيوان، الذي يخضع لإغواء إنانا وسحرها ويقدم لها منيه في كل مرة ترجوه فيها ذلك.

كان تموز قبل أن تكلف به أخته، يرعى، في ظل شجرة الـ «إريدا» Erida وفي حقول غير دنيوية، قطيعاً لا يراه بنو البشر. كان الإله الشاب يحمي حيوانات السماء وحيوانات الأرض ويدرأ عنها أخطار أشعة شمس الظهيرة المحرقة. أيقظت مداعبات إنانا شهوانية الراعي اليافع. وغدا، بفعلها، رجلاً، فأراد أن يبرهن على رجولته في الصيد والطراد كما برهن عليها في فراش الحب والمتعة. وفي إحدى مطارداته أصابه خنزير بري بجرح مميت[1].

منحت إنانا، قبل اقترانها بتموز، جسدها الشهواني، العطش أبداً، جميع الذكور الأحياء فوق الأرض. أما الآن فإنها لم تعد راغبة إلا في الرجل الوحيد الذي عرفت

١- مزج المؤلف هنا بين الأسطورة السومرية والأسطورة الكنعانية، فالإله الذي يقتله الخنزير البري هو أدونيس وليس تموز - المحرر.

الحب في أحضانه - هذا الإحساس، الجديد عليها، بالامتلاء وبالكمال السعيد لأناها الخاص، لا يمنح إلا للرجل والمرأة اللذين لم يخلق أحدهما إلا للآخر.

هذا الاشتهاء للواحد المفرد جعل من الإلهة «التي تفتح أرحام النساء» مثالاً تحتذي به جميع النساء. فليس بكاف أن تشبع لذة الاتحاد الجسدي الحواس فقط بل عليها أن تروي القلب أيضاً. أن العديد من المعانقات لا تعدل عناقاً واحداً يتوِّجُه الحب ويرعاه.

إن الرغبة في امتلاك الرجل الوحيد هي وحدها صاحبة الشأن، ذلك الرجل الذي تفيض بحضوره، دون سواه، كل الحواس بالأمل والرجاء. هذا الرجل الحبيب أغلى من جميع رجال الأرض مجتمعين، والسعادة، كل السعادة، هي في البحث عنه والفوز به والاستسلام له.

خلقت إنانا أسطورة الحب. كانت مستعدة لكل التضحيات، إذ برهنت بسلوكها على أن المرأة العاشقة، لكي تفوز بالرجل الحبيب وتحتفظ به، ألا تُغفل شيئاً وعليها، بدافع هذا الحب، ألا تتراجع أمام المخاطر، مهما بلغت ولو كانت الموت نفسه.

شرعت إنانا بارتياد طريق الجحيم لتبعث في تموز الحياة لكي يعود إليها من جديد، بتحميمة في الينبوع المقدس. سمحت لها اريشكيغال بالدخول وقالت لها: «أنا أيضاً أندب الرجال الذين انفصلوا عن زوجاتهم، وأنا أيضاً أندب النساء اللواتي انتزعن من أحضان أزواجهن» وعلى الرغم من الشفقة التي عبرت عنها هذه الكلمات لم تستطع اريشكيغال إعفاء أختها من معاناة ذل العذاب «وفق ما جاء في الشرائع القديمة» إذ بات على إنانا أن تلج، عارية، المملكة السفلى (العالم الأسفل).

نضا الحارس عن الإلهة ثيابها وعراها. وجردها من حليها ونزع النقاب عن كاهلها. لكن جمال جسدها العاري أثار غيره سيدة العالم الأسفل اريشكيغال. فأصدرت حكمها بسجن أختها إنانا في غرفة من غرف قصرها ليذبل جمالها وتذهب كل الأمراض الممكنة بحسنها وبهائها: «مرض العيون على عينيها... ومرض الجوانب على جنبيها ومرض القلب على قلبها ومرض الأرجل على ساقيها ومرض الرأس على رأسها...»

أذعنت إنانا، بدافع حبها لتموز، راضية بجميع هذه الأوجاع والآلام... بيد أن هذه المصائب لم تنزل بها وحدها، إذ توقفت كل مظاهر الحياة فوق الأرض. فامتنع الإنسان والحيوان عن التزاوج والاقتران: «ما من رجل يطارد الفتيات... والنساء يضطجعن وحيدات.. وكل الأفراح الجنسية انطفأت»...

علم الآلهة بما يجري، فأصابهم الروع والهلع من احتمال زوال البشرية. ترى من سيتقدم إليهم بالدعاء والعبادة إن وقع ذلك؟ ومن ذا الذي سيقدم لهم الأضحيات؟ فسارعوا إلى إصدار أوامرهم لاريشكيغال بإخلاء سبيل أختها، بيد أن إلهة الأرض

أبت أن تغادر العالم الأسفل إلى عالم الأحياء إن لم يُبعث تموز من بين الأموات ويعود إليها حياً. وكان كما شاءت.. وما أن اتحد الزوجان الإلهيان، حتى شرعت الأرض بالتفتح والازهرار واستعاد الإنسان والحيوان لذة التزاوج والجماع واستدركوا، كما استدرك تموز وعشتار، باندفاع لا يكل ولا يمل، كل ألوان الضم والاحتضان التي كانوا قد حرموا منها حتى ذلك الحين.

في كل ربيع، بعد أن تستقبل الحقول المحروثة بذارها، يحتفل رجال سومر ونساؤها بانبعاث تموز الذي يبجلونه بوصفه إله الإنجاب والتوالد، رمز الرجولة التي تهفوا إليها الإلهة الأرض. ولا تقترن النساء، أثناء أعياد الخصوبة هذه، بأزواجهن فحسب، بل يجامعن أيضاً من شئن من الرجال، إذ يمنح الزوج زوجة حق الاقتران بالرجل الذي تشتهي، شريطة أن تحرص على إسقاط نطف من تعشق على الأرض كيلا تحبل. لم تحتفظ هذه العادة، القديمة قدم عبادة الأم الكبرى، باستمرارها إلا في أوساط صغار الفلاحين أنصاف الأحرار وفي أوساط عمال سومر المزارعين. أما وجهاء سومر وأعيانها، أولئك الذين يتباهون بمكانتهم وامتيازاتهم ومظاهر غناهم ويحرصون على التمسك بحقوق الزوج وكرامته، فقد أبوا أن تمنح نساؤهم أجسادهن إلى رجال آخرين أثناء أعياد الربيع هذه حين يسود الفسق والفجور، وأرادوا أن تكون نساؤهم ملكاً لهم وحدهم دون غيرهم، فأرسلوا المبدأ الذي ينص على أن الزواج يفرض على المرأة واجب حب الزوج، وأن اقتران المرأة بزوجها لا بد من أن يبعث فيها الحب ويذكيه إن كانت امرأة صالحة تتقيد بوصايا الدين ونواهيه. وعلى أسس هذا المبدأ سن الملوك الكهنة في مدن سومر قانون الزواج. وقد دون هذا القانون إثر اكتشاف الكتابة في تلك المدن، واكتملت هذه الكتابة مع الزمن إلى أن غدت فناً.

استقرت إنانا المرحة حية في ذاكرة سكان الأرياف، إلهة تفيض حياة وحيوية وتهب اللذة والمتعة أنى حلت، إلا أن إنانا فقدت اسمها وأصل مغزاها في المدن الحصينة التي أحدثت على ضفاف دجلة والفرات وسيطرت على المناطق الخصيبة والمراعي القائمة بين النهرين. وسميت آلهة الحب الجسدي في المدن السومرية عشتار التي بجلتها النساء بالورع والتقوى وكرمها الرجال حيطة وارتياباً.

ومع ذلك، فإن أكثر الرجال ذكورة تعوزهم حظوة عشتار ونعمتها، إنها الإلهة «التي تفتح أرحام النساء» فليس من حقهم الإساءة إلى الإلهة الكبرى التي ترعى الحب وتسهر بعطف عليه، فعليهم، إن هم أرادوا إيقاظ واستثارة شهوانية زوجاتهم وأن ينعموا، في فراش الزوجية، بالحب والحنان بدل اللامبالاة وعدم الاهتمام، أن يقدموا لها الأضحيات. ولكي يحصل الرجال على ما يرغبونه من الأبناء، عليهم، ليس فقط، كسب عطف عشتار، بل عليهم أن يفوزوا أيضاً بحظوة الآلهة الكبار الذين يساهمون بدورهم في خصوبة الأرض ونمائها. ذلك أن الحقول ستبقى جدباء قاحلة إن لم يتدخل ننغرسو إله الري والقنوات حتى وإن كانت عشتار على استعداد دائم للحب تستجيب لرغبة تموز حاضنة لنطفه، بل كيف للانتاش والنماء أن يحدث فوق

الأرض لولا أشعة شمش (الشمس)؟ وهل لشمش وسين إله القمر أن يولدا لولا آنو، الجلد اللا متغير، الذي كان منذ البدء بعد أن أنجب ممو، العماء، الآلهة والشياطين؟

إن وفرة الغلال وجودتها، في نظر السومريين، مرهونتان بما يدور في كنف هذا الكون من توافق وانسجام. هذا الكون الذي يرى سكان سومر في مظاهره رموزاً للآلهة. فقد اعتقدوا وأملوا أن بإمكانهم، من خلال ترميزها، التأثير في هذه الآلهة الكلية القدرة لتقف إلى جانبهم وتتلاءم وأمانيهم، فشيدوا المعابد لتكون لآلهة السماء مقاماً يليق بها، فوق الأرض، فتقيم بالقرب من عبادها تستمع إلى صلواتهم وتستجيب لدعواتهم.

وفي هذه المعابد، المنتصبة فوق المرتفعات، أقام الملوك - الكهنة، فكانوا على اتصال مباشر بالآلهة. وقد سيطرت هذه المعابد وأبراجها المتدرجة، على المدن الممتدة فوق منحدرات التلال وسفوحها.

في البدء شيدت كل مدينة حول المعبد، وحول مقر الآلهة الراعية الفاخر هذا، حيث كان يعيش الملوك الكهنة، وقد أحاطت بهم هالة سلطانهم اللا دنيوية، شيدت القصور وأقيمت البيوت والأكواخ داخل أسوار المدينة المرتفعة، وهيمن الملوك على المدن والأصقاع المجاورة، كما هيمنت الآلهة على المؤمنين، بوصفهم ممثلين للآلهة، مثلهم في ذلك مثل الوكلاء الذين تنمو مواردهم مما يقدمه المؤمنون من أضحيات وهبات، إذ تقضي عبادة الآلهة: إن من حق الملوك وكهنتهم أن يقبلوا، برضا، الثيران والماعز والخراف والحمام والدجاج والأوز والسمك والتمر والتين والسمن والزيت والفطائر بوصفها عطايا منذورة للآلهة يأكلها هؤلاء الملوك والكهنة بدلاً عنها.

ارتبطت مكانة الملوك - الكهنة، في البدء، بما كانت تتمتع به آلهتهم من اعتبار، ولكن سرعان ما توقفت شهرة الآلهة وسمعتها على سلطان الملوك ونفوذهم. فأصبحت مناطق نفوذها وأسماؤها سريعة في تقلبها وتحولها: إذا ما شرع أحد الملوك في محاربة ملك آخر وانتصر عليه استولى المنتصر على الإله المهزوم وكأنه غنيمة من غنائم الحرب ليضيف قوة الإله المهزوم إلى سلطان آلهته فيفوز، من ثم، بالهيبة والشهرة.

ومع ذلك فإن إرادة الملوك السومريين المطلقة، وقحتهم حيال آلهة المقهورين، لم تذهب إلى حد المساس بأسس الإيمان الشعبي وأصوله، إذ كانوا يخشون تعريض النظام القائم للخطر، ويتورعون عن تبديل القوانين الأخلاقية المرعية التي نادى بها السلاطين بوصفها وصايا ونواهٍ إلهية تنسجم والأعراف والتقاليد المرعية الراسخة عميقاً في وجدان الشعب.

وبعد أن استوطن السومريون في منطقة بلاد الرافدين تشكلت الطبقية الاجتماعية في أوساط السكان، تلك الطبقية الشبيهة، في جوهرها، بالطبقية التي كانت تتشكل في كافة أصقاع العالم، بانتقال الأسر والقبائل والعشائر من حياة البداوة والترحال إلى الحياة الحضرية والاستقرار، فطرأ تحسن على أنماط المعيشة بفضل اكتشافاتهم وابتكاراتهم الناجعة وجهودهم الدؤوبة المضنية. وغدا رؤساء القبائل أنبياء

(بمعنى أنهم لسان حال الآلهة) وكهنةً وملوكاً، يستمدون سلطانهم بوصفهم وسطاء بين القوى الدنيوية واللا دنيوية. قد يحدث أحياناً أن يحاط هؤلاء الملوك، في حياتهم، بمظاهر التكريم والتبجيل، كما الآلهة، من خلال مراسم وضعوها هم أنفسهم، ذلك أنهم قد استخدموا بحكمة وسداد رأي، مزاياهم وامتيازاتهم لما فيه خير ورفاهية من يثقون بهم من الرجال والنساء.

وحري أن يعزى تعاظم التقدم ورغد العيش إلى أفعال هؤلاء الملوك، خاصة وأن حياة أسلافهم البائسة، التي انتقلت من جيل إلى جيل، ما تزال راسخة في ذاكرة الأفراد الذين كانوا ينعمون، آنئذٍ، بالرخاء. إن حكمة الكهنة - الملوك جعلت من شعب سومر ما كان عليه في حاضره، ومكانته تلك دليل قاطع على عدالة امتيازات الملوك في السيادة وفي إدارة دفة البلاد باسم الآلهة التي يمثلونها على الأرض والتي يجسدونها أحياناً. يرى سكان المدن والأرياف في أوامر الملك العدل بعينه والخير بأحلى صورة، وإذا ما تكشفت مساوئ هذه الأفعال، فالخطأ في ذلك لا يعزى إليه وإنما إلى خطأ ارتكبته الآلهة أو إلى تعكرٍ في مزاجها، فيسعى الشعب جاهداً إلى تهدئتها بالأضحيات وكسب ودها بالصلوات. كان السكان في مدن سومر موزعين إلى ثلاث طبقات: تأتي في المقام الأول طبقة الأمولو المؤلفة من مستشاري الملك المباشرين الذين يتولون إدارة المدينة وتسيير شؤونها، ومن الكهنة والمحاربين الذين يحافظون على سلطة الملك ويدعمونها في حال تمكنه من تكريس نفسه كلياً للسلطة الروحية، فيحمونه ويدرؤون عنه غارات الملوك الأجانب. يلي هذه الطبقة طبقة الموشكينو Mushkenu وتتألف من التجار والصناع وملاك الأراضي المستقلين. إن المنتسبين إلى هذه الطبقة أحرار بالطبع لكن عليهم الامتثال والخضوع لطبقة الأمولو. أما الطبقة الثالثة فتتألف من الرجال والنساء غير الأحرار، وكان هؤلاء إما ممن بيعوا في سوق النخاسة أو من أسرى الحرب أو ممن ولدوا في ظل سيدهم.

كان هدف الحياة وغايتها عند السومريين السعادة والرخاء، فسعوا إلى الثراء واجتهدوا كل الاجتهاد في تحسين معيشتهم والتمتع بحياتهم، إذ نلاحظ بوضوح، من خلال أعمالهم الفنية التي وصلت إليها، ما بلغته أنماط حياتهم، عبر العصور، من رقي وتهذيب. في البدء، لبس الرجال من المآزر أبسطها ولكن سرعان ما غطوا القسم الأعلى من أجسامهم بأفخر الأقمشة الصوفية والكتانية ذات الوبر، وارتدت النساء فساتين ذات ثنيات تسدل من الأكتاف، وتزين معاصمهن الأساور ونحورهن القلائد وأصابعهن الخواتم وآذانهن الأقراط، وكن يخضبن أظافرهم ويعتنين بها، لكنهن لا يمارسن وأزواجهن شيئاً من الأعمال اليدوية.

كانوا مواطنين أحراراً، وأسياداً وسيدات للعبيد الذين كانوا يلبسون أوضع المآزر وأبسطها ويعتنون ببيوت الأثرياء ويحرسون الماشية ويكرسون جل أوقاتهم للعمل في الحقول، وقد أتاحت أكداس الغلال المودعة في المستودعات للسومريين ممارسة التجارة بفائض إنتاجهم.

لم يقتصر السومريون، في أعمالهم التجارية، على مبادلة منتجاتهم الزراعية ببضائع الشعوب والأجناس القريبة والبعيدة فحسب، بل كانوا، أيضاً، من أوائل التجار في التاريخ. كانوا على دراية «بالحركة اليومية» للبضائع إذ دونوها كتابة، كما ساعدوا على تطوير ورشات العمل لجني ما في مهارة صناعهم من فوائد، فأصبح النساجون والخزافون والحدادون وصانعوا العجلات والسفن والسلال والأوسمة (الميداليات) والنحاتون على الحجر من المنتفعين، بالوراثة، بالأراضي الممنوحة من الملك. فكان على أبناء الصناع، للاحتفاظ بمناطق النفوذ هذه، تعلم حرفة الآباء لكي يزيدوا في ملكياتهم الخاصة إن هم أتقنوا فنهم.

أقام سكان المدن السومرية داخل جدران المدينة التي بلغ الازدحام فيها حداً دفع أحد المواطنين إلى بث هذه الشكوى، التي نفهمها نحن اليوم تمام الفهم، وقد نقشت على بلاطة من الحجر، ما زالت سليمة على الرغم من مرور آلاف السنين، بخصوص: «المدينة التي يتردد فيها صدى صخب الناس وضوضائهم».

أما الفقراء، فكانوا يسكنون في أكواخ ذات أسقف منبسطة تستخدم أيضاً حظائر للماعز وزرائب للخنازير. أما بيوت الأغنياء فقد كانت فسيحة رحبة ذات أفنية داخلية ظليلة يدل أثاثها وما تتزين به النسوة من حلي وجواهر، على مقام صاحب الدار ومبلغ ثرائه.

وغدت تربية الأطفال، في المجتمعات الحضرية، التي كانت في القبيلة والقرية البدائيتين وقفاً على الأمهات، من مهام الآباء الذين يسعون ويجتهدون لكي يتلقى أبناؤهم العلم ويتسنى لهم مواكبة الآباء في مهنتهم، فكانوا يرسلون أطفالهم إلى المدارس لكي يتعلموا، منذ سني حداثتهم، الخط المسماري، الاختراع الأعظم لشعب سومر، والحساب، لتأهيلهم، قدر الإمكان، لممارسة مهنة التجارة التي تعد من أكثر المهن ربحاً. أما ذاك الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة فسوف يجد نفسه معوقاً وستحول دون تقدمه صعوبات جمة، إذ كان لا بد من تدوين كل إجراءات البيع والشراء وكل العقود والتبرعات خطياً، والتصديق عليها وختمها لتكون صحيحة مقبولة.

نظمت القوانين والمحظورات العلاقات بين الناس، ومن ضمنها الأخلاق. وهكذا فإن الزواج يتم عقده بشراء الرجل للمرأة، وكما هو الحال في كل شراء، فإن الزواج يحميه عقد مبرم بين الطرفين. وقد عد الزواج الأحادي، في كافة المدن السومرية، أساس الأسرة. ومع ذلك فليس من المعيب الشائن أن يكون للزواج امرأة أخرى غير زوجة الشرعية أو أن يكون له علاقات جنسية مع «نساء المعبد» وبخاصة الخبيرات منهن اللائي يشكلن الفئة المحترفة غير العادية.

كان البسطاء من رجال سومر، الذين يؤثرون إطلاق عذرهم وحلق شواربهم، يعدون الزواج صفقة رابحة. صحيح أن الواجب يدعوهم إلى تقديم مبلغ من الفضة أو البضاعة القابلة للتداول والمقايضة عند الخطبة إلا أن هذا الثمن يؤكد طيب نوايا الخطيب وصدق رغبته في الزواج بخطيبته في وقت يتفق عليه، مسبقاً، مع ذويها.

ولا تذهب هذه النفقة هباء ذلك لأنها ستصبح، يوم الزفاف، ملكاً للعروس التي ستضمها إلى أثاث المنزل على شكل مهر إضافي. ولا يفقد الخطيب عرابينه إلا في حال فسخه للعقد وتخليه عن وعوده. وليس من المعيب الشائن أيضاً أن تسكن الخطيبة، قبل زواج أبرمته المؤسسة «بتحرير زفافي» في منزل والد زوجها أو منزل زوج المستقبل وتشارك خطيبها مضجع الزفاف. ثم أن ما تعاهد عليه الطرفان يبقى قائماً، فإذا تخلت الخطيبة، من جانبها، عن التزامها فعلى الأب أو أكبر الأخوة في الأسرة أن يرد للخطيب، على شكل تعويضات، ضعف ما كان قد قدمه.

على الرجل الذي يغوي إحدى الفتيات أن يتخذها زوجة له، أما إذا كان متزوجاً فعليه أن يدفع لأبيها أو لأخيها الأكبر، تعويضاً مقابل «انتزاع براءتها» لا يقصد بالبراءة في سومر، العذرة أو البكارة لأن العادة تقضي أن تضحي الفتيات ببكارتهن في معبد إله المدينة. وهل للزواج أن يحظى بموافقة الملوك - الكهنة ومساعديهم، إن لم يطهر العروس ويقدسها، قبل الزواج، اتحاد جنسي مع ممثلي الآلهة في الأرض؟ إن دم العذارى قربان تستمرئه الآلهة، ومن الضروري أن يسكب هذا الدم ويراق أمام المذابح أو تحتها إذ يشكل قسطاً من مراسيم العبادة. كان الاتحاد الجنسي مع ممثلي الآلهة مدرسة للحب. كان الآلهة يعلمون النساء فن الإحساس بالمتعة ومنحها، تلك المتعة التي يجب أن تتوفر في كل زواج يتطلع إلى السعادة، كما يجب أن يتبدد، في حضرة الكهنة، كل حياء عذراوي، إنهم التجسيد الحي والمقدس للجنس المذكر، وكيلا تساور النسوة الشكوك، أياً كانت، حول ذلك، كانت عشتار تظهر على شكل إلهة ملتحية مزودة بعضوي الذكورة والأنوثة معاً. ويدل نهداها العاريان، المنذوران للمص والرضاعة، على أنوثتها. غير أن عشتار كانت رجلاً أيضاً ولحيتها لم تكن الدليل الوحيد الذي يشهد على ذلك.

وتحولت عشتار، من كافة وجوهها، لتصبح إلهة الرغبات المتناقضة المشبعة. صحيح أنها استمرت إلهة راعية للزواج إلا أنها أبت وحرمت نفسها كل رابطة زوجية، ولم يكن، لاتحادها بتموز وحده، أن يشبع جموح عشقها المتوقد. وعليه فقد كانت الكائن المؤنث الوحيد الذي أباح له رجال سومر حرية جنسية مطلقة. ففي ذاكرة الرجال والنساء كانت عشتار تعيش ضرورياً لا حصر لها من مغامرات العشق بوصفها تمثل بديلاً لهؤلاء النسوة من البشر اللائي يترتب عليهن الامتناع عن كل المغامرات العاطفية خارج بيت الزوجية. وبما أن عشتار لم تبرم أي زواج ولم ترتبط، من ثم، بأي عقد، فإن لها الحق في أن تخون كل الرجال الذين واقعوها.

لا نجد بين قوانين سومر الأخلاقية قانوناً واحداً ينص على معاقبة الرجل في حال خيانته لزوجة، في حين تتعرض الزوجات لعقوبة الموت أن هن جُرِّمن زانيات، على الرغم من تضمين «صك الزفاف» تعويض الزوج المخدوع، وللزوج أن يطلق زوجه العاقر، دون اعتبار ما، إذ يكفيه أن يعبر عن أمنيته تلك خطياً في وثيقة الطلاق. وإذا ما رغبت المرأة الطالق في العودة إلى بيت أهلها فلها أن تسترد بائنتها وما دفعه الزوج إبان فترة الخطوبة، أما إذا آثرت البقاء في منزل زوجها فللزوج حق

الاقتران بامرأة ثانية تلتزم، حقاً، بغسل أقدام الزوجة الأولى وحمل مقعدها إلى المعبد».

لم تكن عشتار، بوصفها إلهة الحب الجسدي، حامية للزواج فحسب، بل كانت ترعى أيضاً «نساء المعبد» اللواتي أطلق عليهن الإغريق، لاحقاً، إماء المعبد، وقد شكلت كاهنات الحب هؤلاء طبقة أيضاً. فكان للانتو، التي احتلت مكانة المرأة الشرعية الأولى للإله، ومن ثم، للملك - الكاهن، المقام الأعلى في حرم المعبد، فمن الواجب أن تكون طاهرة الذيل والسلوك ولا غبار على أخلاقها، وقد ترتب على ذلك أن تُمنع، منعاً باتاً، من دخول إحدى الخمارات كيلا تدنس، بتأثير وسلطان المشروبات المسكرة، طهرها الكهنوتي، وإذا ما نمي إلى الملك ارتكابها لمعصية مخالفة للحشمة والآداب المرعية حكم عليها بالموت حرقاً.

وكان على السالمي والزيكو والقاديشتو، اللواتي يحتللن المرتبة الثانية بعد الانتو، أن يخضعن للكهنة ويطعنهم، كما أن من واجبهن ممارسة الحب مع جميع الرجال الذين يدفعون، في سبيل ذلك، الجزية للمعبد، إذ ليس بالشائن ولا بالمعيب، إطلاقاً، أن تكرس الفتاة نفسها «امرأة للمعبد» فللنساء من السالمي، عند الآلهة، المقام الثاني، إنهن نساء الآلهة في المقام الثاني، واقترانهن الجسدي برجال مجهولين يقابل بالتبجيل والاحترام بوصفه زواجاً سرياً روحانياً، ويحمل الأطفال المولودون من هذه العلاقات السرية أسماء أمهاتهم، وهم ممن تفضل طبقة الأمولو تبنيهم.

تلتزم النساء من السالمي بما نذرن إليه أنفسهن إلى أجل مسمى، وما أن يبلغن في فن الحب حد الكمال ويحصلن على بائنتهن ممن عاشرن من الرجال المجهولين، حتى يسعى إليهن الرجال يلتمسون الزواج بهن، ومع ذلك، فقد ترتب على كل واحدة منهن، إذ يحظر عليهن الإنجاب بوصفهن «نساء للآلهة من المقام الثاني»، أن تصطحب معها، إضافة إلى بائنتها، أمة تستخدم كامرأة ثانية، على أن تكون صحيحة الجسم ضامنة لإنجاب ما يرغبه زوجها من الأطفال.

ولا يحول دون زواج النساء من الزيكو والقاديشتو مانع ما، بل كان من حقهن أن ينجبن ما شئن من الأطفال، إلا أن ما يلدنه من الأطفال، أبان خدمتهن في المعبد، يتبناهم الكهنة أو يعرضون للبيع عبيداً، وما كان، في بادئ الأمر، خدمة للمعبد غدا، مع الزمن، احترافاً لدعارة لم تقتصر على النساء فحسب، بل مارسها الرجال أيضاً. إن فقرة من ملحمة جلجامش لتؤكد أن الجنسية المثلية «اللواط» لم تكن ممنوعة آنذاك بل كانت، على العكس من ذلك، مألوفة وشائعة، إذ نقرأ فيها دعوة كاهنة الحب (أمة المعبد» لأنكيدو الأسطوري، ابن الطبيعة الذي كان نصفه إنساناً ونصفه الآخر حيواناً، تستحثه للمضي إلى أهل أوروك: أولئك الذين يشدون كواهلهم بفاخر الأحزمة، ويزهون، دوماً، بحلل الاحتفال. ففي أوروك «يحتفل الناس، في كل يوم، بعيد حيث يهب الغلمان المخنثون الفرح..

المتعة حلت بهم وباللذة يسرفون». يتألف أبطال ملحمة جلجامش[1]، هذه المجموعة الشعرية من الأساطير السومرية، من الآلهة وبني البشر. ولا بد من أن يسمح لنا تحليلنا لأفعالهم وبطولاتهم بفهم أعمق لعالم السومريين الروحي وأخلاقهم المألوفة الشائعة في المدائن أبان تأليف هذه الملحمة.

كان بطل الملحمة الرئيس ملكاً على مدينة أوروك، وقد جاءت خصائصه في مطلع الملحمة على النحو التالي:

هو الذي رأى كل شيء حتى تخوم الدنيا.
هو الذي كابد كل شيء وعرف كل شيء.
واطلع على جميع الأسرار وكشف أموراً خبيثة.
واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء.

.....

وجاء بأخبار أيام ما قبل الطوفان
وسار في طريق بعيد طويل
وارتاد أصقاع الأرض بحثاً عن الحياة
ثلثا إله وثلثه آدمي.

كان مرآهُ يزرع الرعب في قلوب الرجال.. فما لهيئة جسمه من نظير، وليس من ملك مثله في كل مكان. كان طويل القامة ضخم الجسم مفتول العضلات جميلاً يفتن الناس بجماله... لكن توقاً دفيناً سيطر عليه: أن يرى مدينته أوروك «تتلألأ بأبهى حلة بين المدائن» فسخر الرجال كافة ليكدوا ويجهدوا في «بناء الأسوار ليل نهار»، لا يترك أبناً لأبيه ولا بكراً لحبيبها ولا ابنة لمحارب أو صفية لنبيل، إنه الراعي والظالم. فتشكوه الفتيات والزوجات إلى آلهة السماء ويستجيب آنو، الجلد اللا متغير، إليهن، ويأمر آرورو، الإلهة خالقة الأشكال، أن تخلق كائناً حياً نظيراً لجلجامش ليدخل في عراك دائم معه ويتغلب عليه، حتى تستعيد حياة العشق المضطربة في أوروك سيرتها الآمنة. فسارعت آرورو متملية في دخيلتها صورة آنو: غسلت يديها وجمعت قبضة من طين. ومن رضاب الأم الإلهي خرج انكيدو لا يشبه في شيء رجال مردوخ المجبولين بعظم الأرض، ودم كنجو الشيطان الفاسد، نصفه إنسان ونصفه الآخر حيوان، يكسو الشعر جسده وشعر رأسه كما المرأة، إنه رجل له بأس الخنزير وسرعة الطير ولا يعبأ بصحبة الآدميين، بل يعتزلهم ويعيش ناعماً مع الحيوان، يرعى الكلأ مع الغزلان ويرد الماء مع الماشية بقلب جذلان.

١- ملحمة جلجامش: جاءت بعض الفقرات التي اقتبسها المؤلف من الملحمة مقتضبة أحياناً، فآثرت العودة إلى الملحمة بنصها الكامل (ترجمة الأستاذ فراس السواح) وكتاب قصة الحضارة لـ (ديورانت) - المترجم.

ويطلب النصيحة عند ملك أوروك صياد حاول عبثاً اقتناص انكيدو بشباكه وفخاخه. فيأتي جلجامش، القوي المهيب الحكيم، بامرأة رائعة الجمال من معبد عشتار المقدس ويأمر الصياد: ألا فامضِ أيها الصياد وخذ معك امرأة حظية ودعها تنضو ثيابها عندما يرد الماء لسقي الحيوان، لتكشف عن مفاتنها، فإنه لمقاربها إن رآها ستنفض من حوله الوحوش. ومضى الصياد مع كاهنة المعبد يقصدان مورد الماء... وما أن يرى انكيدو حتى يصيح:

ها هو ذا أيتها المرأة
عري نهديك
أسفري عن مفاتنك
حتى ينال كفايته منك
لا تحجمي
حركي فيه الرغبة، علميه وظيفة المرأة
متى رآك انجذب إليك
وافتحي ثوبك، حتى يرقد عليك
فتنكره طرائد البرية
وسيلتصق صدره بصدرك

.....

وحلذت المرأة أزرارها
وعرّت صدرها حتى ينال كفايته منها، ولم تُحجم وأخذت شهوته،
وفتحت ثوبها لكي يرقد عليها وأثارت نشوته كما تفعل النساء
والتصق صدره بصدرها فنسي انكيدو أين ولد.

بعد ستة أيام وسبع ليال عب فيها السعادة عباً وروى نفسه من مفاتنها ويمّم وجهه شطر رفاقه الحيوان يطلب صحبتها، لكنها ولّت هاربة مرتدة عنه، فعاد إلى كاهنة الحب، بعد أن تعثرت قدماه وخارت قواه، خائباً مستسلماً لمن استولت على حواسه، فدعته تلك التي ملكت منه الحواس إلى تغيير حياته: كيف يطيب لك العيش بين وحوش البرية؟ تعال آخذك إلى أوروك، المدينة ذات الأسوار... وسوف أطلعك، أنت يا أنكيدو، يا من تجهل الحياة، على

جلجامش... الرائع الرجولة والعظيم البأس... المتعة ساكنة فيه والشهوة تزين كامل جسمه»...

وبعد أن قدمت كاهنة الحب الخبز لأنكيدو قائلة:

«كل الخبز يا أنكيدو
إنه عماد الحياة».

شجعته على تناول الشراب: «خذ الشراب القوي فهو عادة البلاد». طاب للآدمي - الحيوان المضي إلى أوروك، لم يكن مبغاه السلام، فقد عقد العزم على تحريض جلجامش على الدخول معه في صراع دام، وعندما حلّ بأوروك ذات الأسواق التقى بجلجامش... وسد على سيد البلاد البوابةً بقدمه، ولكن جلجامش الجبار تغلب عليه بقوته ووِدَادِه معاً، ويغدو البطلان صديقين حميمين... وفي خلوتهما كان جلجامش يقدم لصديقه الزبدة في إناء من عقيق والعسل في إناء من لازورد، ويتسامران إلى أن يطلع النهار ويظهر الإله شمش.

كان الصديقان، الآدمي - الإله والآدمي - الحيوان يسيران جنباً إلى جنب يحميان أوروك من عيلام ويعودان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال... وتغلباً معاً على حمبالا (هواو - خمبابا)، حارس الغابة، «أمام جبل الأرز مرتع الآلهة».

وبعد أن يرتدي جلجامش حِلَّته ويزين نفسه بالشارة الملكية ليحتفل وصديقه انكيدو بانتصارهما ترنو إليه عشتار العظيمة وقد استولت عليها الشهوة لمرأى الرائع الرجولة وتتوسل إليه قائلة:

«تعال يا جلجامش وكن عريسي
هبني ثمارك هدية
كن زوجاً لي وأنا زوجاً لك
سآمر لك بعربة من لازورد وذهب»...

لكن جلجامش لم يستسلم لإغوائها، ولم يقع في شراك سحرها ومعسول حديثها، ولم يشأ أن يعاني مصير تموز إله النماء الذي تبكيه كل عام، إذ يمضي إلى الجحيم عند حلول الخريف، فما صانت له وداً، كعهدها إذ كان اسمها اينانا، بل كانت، في فترة بعاده عنها، تلهو وتعربد مع رجال آخرين قبل حلول الربيع إذ تمضي باحثة عنه في الجحيم لتقترن به من جديد، زد على ذلك ما جَنَتْهُ على جميع عشاقها وما جرّته عليهم من وبال. فهذا شاب جميل يزهو بفتوته حوّلته الإلهة المتهتكة إلى عصفور، وها هو الفائق القوة ايشولاتو بستاني أبيها آنو سيد السماء مَسَخَتْهُ، بعد أن سحرته، إلى حيوان لا حول له ولا قوة. فناداها جلجامش قائلاً:

«إن رغبتِ في حبي الآن ألن يصيبني ما أصاب هؤلاء»؟ وبرفضه هذا أثار ثائرتها ونال من كبريائها وغرورها: كيف لرجل مثله أن يرفض طلب إلهة مثل عشتار، تلك التي «تفتح أرحام جميع النساء»؟ فعزمت على أن تثأر لجميع النساء من الرجل الذي رفض سؤالها، وينعم بالسعادة مع صديقه الحميم أنكيدو، وانطلقت إلى حضرة آنو تتوسل إليه أن يخلق ثوراً تهلك به جلجامش... وفي البدء رفض آنو طلبها ولم يُعِرْها أذناً مصغية. ولكي تنال مرادها وينصاع آنو موافقاً على طلبها في أن يخلق هذا الوحش المروع الذي يحصد بخواره الناري أرواح مئات الرجال ويتلف باجتياحه مدينة أوروك، كان لا بد لعشتار، سيدة غرائز الرجال والنساء، من أن تتوعد بأنها سوف تعطل كل ما في الكون من غرائز الحب والشهوة حتى يهلك كل شيء حي. ولكن جلجامش يجهز على هذا الوحش بمعونة أنكيدو ويقتله. فتصب عشتار على البطل لعنتها وجام غضبها، فيستشيط أنكيدو غضباً وينتزع فخذ الثور الأيمن[1] ويقذفه في وجهها.

وانتقاماً لهذا التحدي ورغبة منها في قطع أواصر صداقة حميمة تقض مضجعها، أصابت انكيدو بداء عضال.

وبعد عناء سفر التقى جلجامش بالعجوز الطيب رجل شورياك الذي بنى، في الزمن الغابر، امتثالاً لنصيحة إيا إله الحكمة، سفينة فسيحة إنقاذاً لحياته وحياة من كان معه على متنها أثناء الطوفان، هذا الإعصار الذي أرسلته الآلهة على البلاد لتهلك به بني البشر. وروى اوتنابشتيم لجلجامش وقص عليه قصة إنقاذه لحياته وحياة من صعد فُلْكَهُ، وكيف أنعمت عليه الآلهة بالخلود مع زوجه رغبة منها في استمرار الجنس البشري وخلوده.

عقب سكون العاصفة وانحسار الطوفان رمى اوتنابشتيم ببصره إلى المياه «كان السكون مطبقاً وآل بنو البشر إلى طين» لم ينج منهم إلا من كان على متن السفينة.

بعد أن أخفق جلجامش في ما اختُبر به يُشفق عليه اوتنابشتيم ويمنحه فرصة أخرى، بأن قدم إليه نبته تجددُ ثمارُها شبابَ من يأكلها.. يسعد جلجامش بما غنم ويقفل عائداً إلى مدينته، لكنه يقف في طريقه ليستحم، وبينما هو يفعل ذلك، تنسل الأفعى وتسرق ما جناه بعد طول عناء. لقد قضي الأمر... فلا مناص من موت الإنسان. ترى ما الذي ينتظر الإنسان في موته؟ ويتوسل إلى الآلهة أن ترد الحياة إلى أنكيدو هنيهات معدودات... ويظهر أنكيدو.. ويجيب على أسئلة جلجامش الملحاح

١- في النص الفرنسي المترجم يقذف أنكيدو الإلهة بأعضاء الثور التناسلية - المترجم. وهذا غير موجود في النصوص الأكاديمية.

حول الموت والموتى: «لا أستطيع أن أجيبك، لأني لو فَتَحتُ الأرض أمامك، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ولَغَشِيَ عليك».

حَسِبَ جلجامش، وقد سمع أخبار أهوال الجحيم أثناء ترحاله إلى أوتنابشتيم، أنه عالم بالموت، خبير بحقيقته، فيقدم النصح لصديقه أنكيدو قائلاً: «لا تحدث جلبة تصَّاعد إلى أرض الأحياء، لا تقبل المرأة التي تحب، ولا تضرب المرأة التي تكره، لا تقبل الطفل الذي تحب ولا تضرب الطفل الذي لا تحب...» ليست مخافة الموت بأسوأ الأشياء، إنما الأشد هولاً: «أن لا تجد روح الميت حارساً يرعاها». وقد قيل: «ويل لمن تركت جثته في العراء، فالروح عنه تائهة لا يهدأ لها بال وليس لسكينتها من قرار، ويل لميت ما جَلَبَ له ذووه طعاماً، يقتات بالفتات وما تركه الآخرون في قدورهم من نتن الفضلات وما رموا به للطريق».

أما الإلهة سابيتو التي امتثل جلجامش أمامها يشكوها بلواه قائلاً: «ليتني لا أرى الموت الذي أخشاه»، فقد خففت من روعة قائلة: «الحياة الخالدة التي إليها تسعى لن تجدها، والآلهة إذ خلقت الإنسان أقامت الموت في جبلته وجعلت حياته حبيسة أيديها». ثم أردفت تنصحه الحياة التي يجب أن يعيش: «والحال هذه يا جلجامش، بالطعام والشراب املأ معدتك. ابتهج ليلك ونهارك. اجعل كل يوم من أيامك عيداً سعيداً. بالناي والقيثارة اطرب نفسك، وبالرقص أنعش فؤادك ليل نهار. ارتد من الثياب أنظفها، اغسل رأسك وضمخ شعرك وحمم بدنك بأعذب المياه. انظر بفرح إلى الصغار الممسكين بيدك، وتمتع بين أحضان المرأة».

وانتشرت، بفضل ملحمة جلجامش، في بلاد سومر، انتشار النار في الهشيم هذه الدعوة للتمتع بالحياة مخافة موت محدق أثر في أخلاق النساء والرجال معاً، وبلغ بهم حد الاحتفاظ بورع ديني مقيم نحو عشتار.

ومع ذلك فقد ندرت فترات الأمن والسلام في منطقة بلاد الرافدين، حيث كان الرجال ينعمون «بين أحضان النساء»، فراحت في الأفق، من كل حدب وصوب، تتوالى جحافل الغزاة المحاربين وقد اجتذبتهم بلاد سومر الخصيبة، فيجتاحون حقولها وبساتينها ويذبحون ماشيتها وينهبون مدنها ويستولون عليها، فإن طابت لهم عادات السكان في تلك الأصقاع المغلوبة استوطنوها وعاشوا كما يعيش أهلها.

لم يكن يعكر صفو أمن السومريين إلا القبائل البدائية الزاحفة من الجبال والصحارى، فقد اعتاد ملوك المدائن على الاقتتال دائماً وأبداً، كما أن رهان هذه

الحروب وشرورها كاد أن يكون، على الدوام، هو نفسه: الرغبة في تعاظم الملك والسلطان.

في الوقت الذي كان الملوك يقتتلون في سومر وتتنازعهم الحروب الطاحنة، (إذ نستطيع أن نكتشف، في أيامنا هذه، مواضع قرابة خمسمائة مدينة دمرتها هذه النزاعات وتنتظر من يكشف النقاب عنها)، ارتقت قبائل من البدو الساميين بأكاد الواقعة في الشمال الغربي من سومر لتصبح مركزاً لمملكتهم. وها هو سرجون (أو صارغون)، أشهر ملوك أكاد، بعد استيلائه على بلاد الرافدين يحدثنا عن نفسه قائلاً: أنا الملك الواسع السلطان، ملك أكاد. كانت أمي كاهنة معبد ووالدي لم أعرفه. حملت بي أمي الوضيعة الشأن وأخرجتني إلى العالم سراً، ووضعتني في صندوق صغير من الأسل، وأحكمت علي الغطاء بالقار وأسلمتني للنهر...»

ثم أنجاه أحد سقاه الملك، ورباه في كنفه، وقد شاء قدره أن يجعل منه «سيد مناطق العالم الأربع» ويسرد قصته بنفسه مفسراً لنا سر ارتقائه الخرافي من طفل لقيط إلى مؤسس أول إمبراطورية في التاريخ، ويقص علينا قصة هيامه بالإلهة عشتار التي هامت به بدورها، فاستطاع بعونها أن يهزم ذوي «الرؤوس السود»: السومريين. ترى، هل أراد سرجون، بهذه الأسطورة، أن يحتفي بثأر عشتار من شعب جلجامش وأن يقدم نفسه بوصفه وسيلة لهذا الانتقام وأداته؟ ملك أوروك، كما نعلم، لم يستجب لإلهة الحب الجسدي، لكن سرجون قد انصاع لمطلبها ومن ثم فقد حق له أن يكون جديراً بنعمها: لم تفتح له «أرحام جميع النساء» فحسب، بل فتحت له أيضاً أبواب المدائن السومرية كلها.

لم تفقد أخلاق سكان سومر وعاداتهم نفوذها بزوال سلطان حكامها من ملوك أكاد. وتوزعت بلاد الرافدين، مجدداً، إلى العديد من ممالك المدن المستقلة، بل استطاعت أيضاً التغلب على ما أتى به الغزاة الجدد من عادات فظة.. صحيح أن هؤلاء قد فرضوا هيمنتهم الغاشمة على البلاد لكنهم آثروا تبني ما لدى تلك الشعوب المغلوبة من أنماط حياتية رغيدة، إلا أن طبقة جديدة من الأشراف والأعيان، أقامت وقتئذٍ في القصور، كانت قد حلت محل طبقة الأمولو المترفعة التي كان على طبقة الموشكينو أن تقدم لها آيات التبجيل والاحترام، ومع ذلك فقد كان بمقدور الصناع والتجار أن يمارسوا حرفهم كسابق عهدهم، وأن ينعموا باللذة باحتضان زوجاتهم ونسائهم الأخريات. فهم وإن اضطروا أحياناً أن يسكتوا على ما تسبب به أسيادهم الجدد من تعكير صفو حياتهم الزوجية ومن استغلال مقيت لنسائهم، فذاك تنازل إلزامي لا مناص منه لاضطراب ذاك العصر وعدم استقراره، أما الجوهر الأساس فقد ظل على حاله لم ينل منه تبديل ولا تغيير. لكنهم ما برحوا يملكون عبيداً يستغلونهم وثروات يستثمرونها، ففي الحقول والمراعي الخصيبة، مناطق نفوذهم، ما فتئت ماشيتهم ترعى ومزروعاتهم تنمو، فالسادة الجدد لا يختلفون، في شيء، عمن ساد قبلهم، فما برح هؤلاء الأسياد يطالبون بنصيبهم مما يجنيه الصناع والتجار، فمن أدى الجزية منهم ترك وشأنه ونعم بأمنه بل ويفوز أيضاً بالمكافأة إن

هو طور عمله وصناعته، أما جزاء أولئك الذين يرفضون أداء ما عليهم فليس بأسوأ مما كان عليه سابقاً، فالحياة ما برحت تسير سيرتها الأولى في الدين والدنيا. لقد تغيرت، بالطبع، أسماء الآلهة، لكن دلالتها بقيت على حالها: فما زالت رموزاً لقوى الطبيعة المبهمة جمعاء، في الأرض كما في السماء، وفي بقاء هذه الآلهة على حالها، بقيت معها الشرائع الأخلاقية التي سُنَّتْ باسمها، لم تتبدل إلا في جزء بسيط منها.

أعلن حمورابي الحرب على الشر المتمثل في تلك المحاولات المناهضة للنظام القائم، وتتهدد أنماط الحياة والعادات المرعية التي تطورت على امتداد آلاف السنين: شرير ذاك الذي يعتدي على ملكية الآخرين، أو يلاحق قريبه في القضاء أو يسرقه أو يعتدي عليه أو يقتله. إن حياة الرجل الحر كما المال والثروة، فمن اخترق حياة الآخرين دفع حياته جزاء عمله، ومن ارتكب جريمة قتل فعقوبته الموت المؤكد، وإن كسر رجلٌ أعضاءَ رجلٍ آخر حل به العقاب نفسه. إن شريعة القصاص أو الأخذ بالثأر «العين بالعين والسن بالسن» كانت أساس التشريع الجزائي. مع ذلك، لا يجوز أن يفرض هذه العقوبات المتضررون أو ذووهم، وإنما تفرضها المحاكم الملكية حصراً.

تعد السرقة المادية والاستيلاء على العبيد أو الماشية جرماً مخالفاً للقانون، كما هو الحال بالنسبة لِدَين موثّق، لم يلتزم المستدين بتسديده، سواء كان الدين إيجاراً أو قرض معونة. ويعد مذنباً كل من يرمي إلى غش قريبة وخيانته، وتضليله بادعاءات كاذبة، أو الحط من قدره ومن المكانة التي يحتلها في المجتمع. إن استغلال الفقراء والضعفاء والإساءة إلى من لا حول له ولا قوة شر، لكن الجريمة العظمى تنحصر في الاعتداء على ممتلكات الملك أو المعبد أو القصر، إذ يكفي أن يختطف أحد الرجال عبداً من عبيد القصر، سواء كان هذا العبد رجلاً أو امرأة، لكي يُقاد إلى خارج أبواب المدينة، لينال عقوبة الموت.

لم يكن تشريع حمورابي أساس تاريخ المجتمع والقانون فحسب، بل كان أيضاً أساس سلوك الإنسانية الأخلاقي عبر آلاف السنين، فقد أدرك رجل الدولة حمورابي، بعظيم حكمته أن التصريح، عن وفاقه مع القوى الإلهية يمنح سلطته الدنيوية الزمنية بهاءً فوق طبيعي، فنسب نفسه إلى مردوخ الإله راعي بابل وحاميها، بوصفه «الملهم والمحرض والمؤسس» لتشريعه، وإلى شمش، إله الشمس، بصفته «الحامي للعدالة»، كما أعلن عن تبجيله لآنو وبل إلهي السماء والأرض، ولم يُغْفِل في أحكامه، البتة، أن يقدم نفسه بصفته «الوكيل» و «الخادم» أو «الحارس» لقوى السماء، ثم يعرف بنفسه بصفته «الأب الحق لشعبه» فكان، كما الأب، يتولى قيادة الأسر ويتصرف بشؤونها.

منح حمورابي الأزواج، رجالاً ونساء، حماية القانون، لإدراكه أن الزواج أساس العائلة وعمادها، وبصفة أكثر شمولاً، أساس الدولة. فحظر على الزوج الانفصال عن زوجه المريضة ومنحها حق العودة إلى بيت أبيها، «... فإن كانت المرأة شريفة لا يعيبها شيء واعتاد زوجها الخروج من المنزل جرياً وراء

المغامرات وحط من قدرها فهي غير مذنبة». وإن أتت المرأة «بالبراهين على سوء معاملة الزوج لها»، يعاقب الرجل بحرمانه من زوجة، وقد حافظ مثل هذا العقاب اليسير على امتياز الرجل القائم في الأخلاق السومرية، إذ كانت العقوبات بحق النساء اللواتي يعكرن صفو الحياة الزوجية بسلوك مخالف للآداب، بالغة القسوة والصرامة على الدوام: «فإذا تبين أن المرأة مذنبة، وإذا تركت منزل زوجها، وإذ اختلست مالاً، وإذا أهملت زوجها... يلقي بها في الماء».

ومع ذلك، فإن وضع المرأة البريئة، المرأة العاقر، قد أصاب بعض التحسن: «إذ تزوج رجل من ناديتوم (كاهنة) وقدمت لزوجها أمة فأنجبت له أولاداً، فإذا عزم هذا الرجل على الزواج من الشوكيتوم (الأخت العلمانية) فلا يسمح له بذلك لأنه لا يستطيع أن يتزوج الشوكيتوم» ولا تحتل الأمة التي أنجبت أولاداً مكانة الزوج الأولى، كما نص تشريع حمورابي أيضاً على ضرورة عدم إقرار النساء بذنوبهن دون ردٍ أو دحضٍ لافتراءات الأزواج الكاذبة: «إذا اتهم رجل زوجة، ولكنها لم تضبط وهي تضاجع رجلاً آخر، تعود إلى بيتها بعد أن تؤدي اليمين أمام الإله».

إن الاغتصاب، وغشيان المحارم، وقتل العشير (الشريك)، واغتصاب خطيبة رجل حر، ومضاجعة زوجة الابن (الكنة) أو الأم الأرمل، تستدعي أقصى العقوبات وأشدها.

وقد قام الملك ومن يختارهم من الكهنة بتنفيذ هذه القوانين، حتى إلى ما بعد وفاة حمورابي، عندما سيطر على البلاد غزاة آخرون. لم يحاول أحد ما تتبع أصول ما تضمنه هذا التشريع من نواه ومحظورات. ترى، هل عد الفعل الجنسي بين أقرب الأقرباء وأنزل بمرتكبه أقسى العقوبات بصفته انتهاكاً لحق الملكية. أم أن الحكام وقضاتهم قد رأوا في مثل هذا الاتحاد الجسدي المحرم فعلاً مخالفاً للطبيعة أم أنهم، ببساطة، قد فكروا تفكيراً سليماً بضرورة منع مثل هذه التصرفات بقسوة بالغة لأنها قد تعرض للخطر ما يخيم على أفراد الأسرة الواحدة من انسجام فتبلغ مبلغاً يهدد أمنها واستقرارها، فلا بد، إذن، من أن يكبت الخوف من العقاب كل رغبة؟ وبما أن كل هذه الوصايا والأوامر والمحظورات قد سنت وفق تعاليم الآلهة، وأن الأحكام قد صدرت باسمهم، فقد اشتهرت كل القوانين الأخلاقية، التي ألزمت الحياة الجنسية بحدود معينة، بأنها وحي إلهي، وعليه فإنها تشكل فحوى الإيمان وتهيمن على المفاهيم الأخلاقية.

احتفظت قوانين بلاد الرافدين الأخلاقية الأساسية بقيمتها وأهميتها عبر آلاف السنين. وبقي الطقس الإلهي على حاله أيضاً، إذ كانت الكاهنة الكبرى، بمراقبة صارمة من الملك، تؤدي وظيفتها المقدسة بوصفها زوج الإله الرمزية، فهي لا تملك حق الزواج، لكن الكاهنة الكبرى قد استطاعت، في وقت لاحق، الزواج دون أن يكون لها الحق في الإنجاب.

واستمرت إماء المعبد ينذرن أنفسهن لحب يباع ويشرى في معبد إلهتهن الحامية فكن في نظر السكان محترفات مفيدات لا غنى عنهن، واستمرت فتيات بابل

ينذرن بكارتهن في المعابد قبل أن يشرعن في علاقات غرامية أو يرتبطن برابطة زوجية.. فاستمر الإيمان، الذي كان يعد بموجبه «فتح أرحام» العذارى عملاً مقدساً ينبغي إنجازه على مقربة مباشرة من آلهة الحب الجسدي، إلى ما بعد استيلاء جميع الفاتحين الذين سيطروا على بلاد الرافدين وقاموا بتبديل الآلهة المحلية برموز إلهية أخرى، فهم وإن لم يرسلوا، بالفعل، بناتهم وأخوتهم وأفراد حاشيتهم إلى معبد عشتار لافتضاض بكارتهن في المكان الذي أعد خصيصاً لذلك، فإنهم لم يمنعوا، إلى جانب ذلك، هذه العادة الشعبية القديمة.

ويروي لنا هيرودوت الذي عد أب المؤرخين: أنه في معبد عشتار، التي كان يدعوها بميليتا الشبيهة بإلهة الحب الإغريقية أفروديت، لم يكن يتوفر للرجال النهمين للمتع الجسدية إلا إماء المعبد. فكتب يقول: كان على كل امرأة بابلية أن تذهب مرة في حياتها لتجلس بالقرب من هيكل أفروديت وتضاجع أحد الغرباء، وكان من بينهن الكثيرات اللائي يترفعن عن الاختلاط ببنات جنسهن لأنهن يتشوفن ويتباهون بما ينعمن به من ثراء، كن يذهبن إلى المعبد في عربات مقفلة ويحيط بهن أعداد غفيرة من الخدم والحشم، أما الكثرة الغالبة منهن فكن يتبعن الطريقة التالية: كن يجلسن في غابة أفروديت المقدسة، وقد وضعن حول رؤوسهن حبالاً صغيرة (على شكل تيجان)، وبينهن كنت ترى على الدوام حشداً غفيراً من النساء بين غاديات ورائحات، وتنساب فيما بينهن ممرات مستقيمة تذهب في كل اتجاه يمر فيها الغرباء ليختار كل منهم عشيرة. والمرأة منهن إن جلست جلستها تلك فلن يحق لها العودة إلى منزلها إلا إذا ألقى أحد الغرباء قطعة من النقود في حجرها وضاجعها خارج المعبد. وكان على من يلقي بقطعته الفضية أن يردد الكلمات التالية: «باسم الآلهة ميليتا» وميليتا هذه تعني أفروديت (عشتار).. ومهما يبلغ مقدار القطعة الفضية التي يقدمها الغريب فلا يجوز للمرأة أن ترفضها أو تستخف بها، فهذا الرفض ممنوع لما لهذه القطعة من قداسة، إذ ينبغي عليها، والحال هذه، أن تذهب مع أول رجل ألقى إليها بقطعة نقوده وليس من حقها أن ترفضه أياً كان هذا الرجل. وما أن تضاجعه وتتحلل من نذرها وما ترتب عليها من واجب للإلهة حتى تعود إلى بيتها، وقد يحاول أحدهم لاحقاً، أن يجزل لها العطاء لينالها لكنها ترفض. ولا تمكث النساء الجميلات الحسناوات إلا بعض الوقت فما أن يأتين حتى يرجعن سريعاً إلى البيت، أما القبيحات فيمكثن في الهيكل طويلاً لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه القانون بل إن من بينهن من ينتظرن ثلاثاً من السنين أو أربعاً...»

وقد كانت هذه العادة البابلية تعود بالنفع والفائدة على المعابد التي تحولت إلى معارض وأسواق موسمية ترضي جميع الأذواق وتشبع العديد من الحاجات، وهي إن

دلت على شيء فإنما تدل على عدم كفاية عدد الكهنة الذكور، لتعاظم أعداد الفتيات اللائي بلغن سن الزواج ممن ينبغي فض بكارتهن[1].

وكان الكهنة يؤدون واجباتهم الكهنوتية ويقومون بوظائفهم اليومية، كما التجار أو الصناع، في قاعات فسيحة مزدانة بأفخر الحلل، إذ كانوا يصنعون شراب العشق والمحبة ويبيعونه، وكانوا «خصوم الأمراض» و «نادبو الموتى» و «منشدو الأناشيد والترانيم للأحياء». وهم مستعدون، مقابل أجور سخية، لتفسير الأحلام والتنبؤ بمستقبل المشاريع التجارية باستخدام الطير، وغالباً ما تتكشف صحة فؤولهم وتنبؤاتهم ودقتها، ذلك لأن هؤلاء الكهنة كانوا، بطريقة أو بأخرى، على علم، إلى حد ما، بالقسم الأعظم من أسرار أولئك الملتمسين الجزوعين القلقين.

لم تقتصر موارد الكهنة على إدارة دين يتولون شؤونه، بل ساعدوا أيضاً على ازدياد التطير وتفشي الخرافة وزرع الخوف في القلوب من الشياطين الذين يناصبون الإنسان العداء، ويطاردون دون رحمة أياً كان ممن لا يخضعون للقوانين ولا يتقيدون بها، ووساطة الكهنة هي القادرة، دون غيرها، على طرد الشياطين وتضييق الخناق عليهم: «إن كل من يقتني حلقة أو خاتماً، من صنع الكهنة أو خيطاً غزلته إحدى العذارى وباركه أحد الكهنة فسوف يستوثق من فحولته ويتقي شر الشياطين الذين يتسببون بالأمراض والأوبئة ويدفعون بالمرء إلى الجنون. وإن صورة إله يحملها الإنسان معه لا بد من أن تدفع عنه شر «العيون الحسودة»، لكن أسلم الطرق وأضمنها أن يكشف المريض أسرار نفسه ويسلم أمره إلى الكهنة فهم الذين أوتوا القدرة على طرد الشياطين بالسحر والتعاويذ والترانيم.

وهكذا فقد تلازم تلازماً لا ينفصم كل من الفرح بالحياة والخوف من الأرواح الشريرة. ففي الحياة العامة ساد الفرح بالحياة وخيم.. فارتدى رجال بابل ونساؤها الثياب الطويلة الفضفاضة والغنية بألوانها، وتفاخروا، علانية، بحبهم لمسرات الحياة ولذائذها. وتزينت النساء بالأطواق والأساور، وعقصن شعورهن بقلائد من اللآلئ والجمان وحسرن عن أكتافهن في أيام الأعياد، كما تلفف الرجال في معاطفهم يخطرون، وفي أيديهم عصياً لها رؤوس منحوتة ومنقوشة. أما الكهنة فتراهم وقد اعتمروا القلانس الطويلة بأشكالها المخروطية ليتأبهوا بها عن عامة الفانين، إذ كان عليهم، بالفعل، الإعلان عن تفوقهم وعلو مقامهم الدنيوي بكل الوسائل الممكنة لتوطيد سلطتهم، ومع ذلك لم يكن بمقدورهم أن يعدوا المؤمنين الصالحين، بعد موتهم، بأجر ما، أيا كان، على صلاحهم وجميل أعمالهم، وذلك لأن السماء لا تفتح أبوابها إلا للآلهة.

لكن الخوف من أن تطوف أرواح الموتى تائهة لا تعرف الراحة، كالجزع الذي انتاب جلجامش، دفع البابليين إلى دفن موتاهم باحتفال مهيب. فوضعوا في قبور

١- لا نستطيع الاستنتاج أن الدعارة المقدسة كانت تغل دخلاً مالياً للمعبد لأن المقابل المدفوع من قبل الرجال كان مقابلاً رمزياً غير محدد، وقد لا يتجاوز في معظم الحالات أصغر قطعة نقدية متداولة آنذاك - المحرر.

النساء الأمشاط وقوارير العطور وأدوات الزينة، ليكون بمقدورهن الحفاظ على مظهرهن وسحر مفاتنهن إبان الموت، وألبسوا الرجال الثياب الفاخرة وزينوهم بشارات تدل على مكانتهم، ليواجهوا بها الشياطين ويفخروا. لكن أفضل الوسائل وأوثقها هي أن يُطمئن المرء نفسه إبان حياته، فبفضل شفاعة الكهنة سترضى الآلهة، وتترفق بمن قدم لها العديد من الأضاحي والقرابين... بل أنها ستدفع عنه، في موته، خطر الأشباح وتسهر لتجنبه شر الآلام والعذاب.

ومع ذلك فقد بقيت بابل موطناً للفجور ومدينة ترتع باللذة والمسرات على الرغم من انتهاء أمرها، منذ أمد بعيد، عاصمةً لمنطقة بلاد الرافدين، إذ تركت أخلاق البابليين وأنماط حياتهم آثارها عميقاً في سلوك الملوك الآشوريين الذين اتخذوا من بابل المغلوبة مثالاً يحتذى لبناء عواصمهم. ومدينة نينوى هي إحدى هذه المعاقل الملكية، وقد أطلق عليها هذا الاسم تكريماً للإلهة نينا، إلهة الحب الجسدي عند الآشوريين، التي لا تختلف في شيء عن عشتار. وفي مدينة الحب هذه، كان باستطاعة الآشوريين «التمتع بين أحضان النساء»، إلا أن الواجب كان يدعوهم، قبل كل شيء آخر، إلى إتقان فنون القتال وتقديم المساعدة لمليكهم في غزواته وفتوحاته الدموية.

من مبادئ ملوك آشور الرئيسة: القوة تتغلب على الحق وتسمو عليه. ففي مملكتهم لم ينعم بالامتيازات (إلا المحاربون، إذ كان من حقهم أم يبتنوا لأنفسهم أفخم المساكن، وأن يجهزوها بكل وسائل الراحة التي توفرها لهم مكانتهم المرموقة، فزينوا جدران منازلهم بستائر متعددة الألوان، وجلبوا لها من الخارج مفروشات وأدوات من الأخشاب النفسية أو البرونز وأوان من الزجاج الملون أو الصلصال الموشى أو المعادن الكريمة.

وفي داخل هذه البيوت الغارقة في بذخها وترفها عاشت المرأة الآشورية، إلى حد ما، كما الأسيرات، فلم يكن يسمح لها بالخروج والظهور في الأماكن العامة بغير حجاب، وفرض عليها التكيف والعيش مع العديد من النساء الأخريات ممن اختارهن الزوج وفق هواه، أما هي فمن واجبها أن تحرص، كل الحرص، على إخلاصها وتصون عرضها[1].

وفي معبد نينا، غدا الحب الذي يباع ويشترى تجارة تدر على رجال الدين أرباحاً وفيرة، تزيد عما كانت تدره في معبد عشتار البابلي.[2] صحيح إن بنات المحاربين وأخوتهم قد انقطعن، كلياً، عن التضحية بعذريتهن لإلهة الحب الجسدي الآشورية، إلا أن بمستطاع كهنة نينا المطالبة بجميع نساء المقاطعات المحتلة للخدمة في المعبد، والاحتفاظ بهن رهينات مدى الحياة. كانت المعابد معرضاً موسمياً يؤمه

١- لا نستطيع قبول رأي المؤلف هنا على إطلاقه، لأن الصعود امرأة مثل سميراميس إلى سدة الحكم في آشور يقدم بينة معاكسة.

٢- لا يوجد لدينا معلومات تؤكد استنتاج المؤلف عن أرباح المعبد من الدعارة المقدسة فالمقابل النقدي المقدس قد بقي في آشور رمزياً وفي حده الأدنى كما كان في بابل - المحرر.

الملك ليختار حظياته وسراريه فتدخل النساء ممن اختارهن في عداد حريم القصر. ومن بين الرجال جميعاً لا يحق إلا للملك وحده امتلاك المرأة التي يشاء دون أن يكون للزوج المخدوع حق قتله، وإن فعل فالقصاص واقع عليه لا محالة، تلك هي حالة مملكة آشور، إذ كانت عالماً يسوسه رجال قساة لا يعرفون الرحمة ويخضع، حصراً، لطموح اتساع رقعة الإمبراطورية الآشورية.

وما أن استلم الحكم سلاطين ضعاف حتى انهار سلطان هذه الدولة العسكرية القائم على استبداد لدود وانضباط صارم وإرهاب مروع... وانتهت موجات الجحافل التي اكتسحت مملكة آشور المرة تلو المرة بأن أعاد بنائها القبائل الرحل الأقدمون من الآراميين الساميين. وبقيت أحوال البلاد على حالها باستثناء إقامة أشراف جدد في القصور وحلولهم محل أشراف المملكة المنهارة وامتزج الآراميون، هذا البحر الخضم من البشر، بالسكان المحليين متبنين عاداتهم وتقاليدهم، ومع هؤلاء انتقل وضع المرأة من سيئ إلى أسوأ.

وقد احتاج الملوك، إلى الامساك بزمام الحكم والحفاظ على سلطان المملكة بقوة السلاح، إلى طلب المزيد من المحاربين على الدوام، وهنا يكمن دور المرأة: ينبغي على النساء إنجاب الأطفال، في حين لم يكن لمعرفة الملقح عشيرهن أهمية تذكر. إن كل منع للحمل تعاقب عليه المرأة بأشد العقوبات، وإن شاء سوء الطالع أن ينتهي حمل المرأة بولادة كاذبة، حتى وإن ماتت أثناء الوضع، كانت تحرق في الساحات العامة أمام الملأ لتكون عبرة تزرع الرعب في النفوس. وقضى العرف أن تقيم زوجات من رحل للحرب من الرجال في منازل آبائهن، وإن عاد هؤلاء الأزواج فلن يعودوا إلا عرضاً وهم يرمون هدفاً واحداً بعينه: اتيان نسائهم وتحبيلهن. ولم تُعْفَ، في ذلك الزمان، فتيات أسر المحاربين صاحبة الامتيازات من الالتحاق ببيت الحريم للانضمام إلى نسائه.

ويروي لنا الملك آشور بانيبال، منشئ أكبر مكتبة في التاريخ، على أحد الرقم الطينية، كيف درج وترعرع في حرم ملكي وكيف بنى لنفسه بيت حريمه: «... في ذلك الوقت تقادم عهد الحرم، مكان الراحة في القصر.. الذي شاده سنحريب ليقيم فيه، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور، وتداعت جدرانه. وإذ كنت أنا آشور بانيبال، الملك العظيم، الملك القادر، ملك العالم، ملك آشور، ... قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور. وسن، وشمش، ورامان، وبل، ونابر، وعشتار، وأنا ولي العهد، وبسطوا علي حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضي، ... ولم ينفكوا يبعثون إلي فيه أنباءً سارة عن ظفرنا بأعدائنا، وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاماً سارة، كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة جميلة، .. فقد مزقت خرباته، وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً. وشُدت بناء مساحة أرضه خمسون تبكي» (عن قصة الحضارة لـ ول ديوارنت - المترجم).

... فأقمت مشرفاً، إلا أنني لم أشد البناء في مكان كثير الارتفاع تقديراً وإجلالاً لمعابد الآلهة العظام، أربابي في السماء، ووضعت حجر الأساس فوق هذا المشرف

في شهر مؤات ويوم ميمون، ثم شرعت بوضع الآجر: وصببت شراب السمسم ونبيذ الكروم فوق قبره، كما سكبت مزيداً من الخمر على جدرانه الطينية المطروقة... وبالفرح والنشوة بنيت حرم النساء من قواعده حتى سقفه.. ووضعت فوق الجدران عوارض طويلة من خشب الأرز. وطليت بالنحاس أبواباً تفوح منها روائح ذكية... وزرعت حوله خميلة حَوَتْ جميع أنواع الأشجار و... وفاكهة من كل نوع... ولما أنجزت عملي قدمت للآلهة أربابي أغلى الأضحيات وأثمنها ثم دخلت المكان تحت مظلة مهيبة» ونقرأ على ضريح آشور بانيبال، الذي لم يقتصر في حبه على النساء الجميلات فحسب بل توسع في بيت حريمه ليضم أيضاً أجمل الغلمان وأحلاهم:

تذكَّر أبدا أنك فانٍ لا محالة
انعم بحياتك واطرَب وارو رغبات فؤادك
فالمسرة حكر على الأحياء، فإن مت فلن يبقى
لك ما يسرك
لست الآن إلا تراباً
رغم أني كنت ملك نينوى، رائعة المدائن،
المدينة الرائعة.

ولكن قد بقيت لي هذه الأشياء التي ابتهجت بها في حياتي - الطعام الذي أكلته، واللهو الذي استمتعت به، وملاذّ الحرب ومسراتها. أما ما عدا هذا من الأشياء التي يراها الناس نِعَماً فقد تركتها خلفي» - قصة الحضارة، المترجم).

بعد أربع وعشرين سنة من وفاة آشور بانيبال أحرقت نينوى وذبح أهلوها ودمر بيت حريمه. وقد وجدنا بين ركام القصر وأطلاله عشرين ألف مقطع من ألواح الصلصال منقوشة بأحرف مسمارية، أتاح لنا فك رموزها ودراستها أن نلقي نظرة إلى الماضي التاريخي البعيد ونتعرف على أخلاق السكان في بلاد الرافدين.

واقتسم مملكة آشور بانيبال غزاة متحالفون تتوزعهم أهواء متضاربة: فانفرد الميديون من البدو المحاربين ليقيموا في أعالي النجاد الإيرانية ويشيدوا الاكباتانا عاصمتهم الأولى: «ملتقى العديد من الطرق». في حين انفرد الكلدانيون الآراميون بالغرب ونجحوا في الاستقلال بالمملكة البابلية.

وقد رغب الغزاة الجدد بعد انتصارهم، الذي جاء ثمرة لتوحيد القوى واتفاق الكلمة، في أن ينفصل كل طرف منهم ليستقل بشبعه وما يتميز به من أعراف وعادات وتقليد، وأجمعوا على بناء سور عظيم في الشمال من بابل يمتد من الفرات حتى دجلة. لكن هذا الجدار الميدي، الذي سهرت على حراسته مفارز توزعت على مسافات منتظمة لتسهيل مهمتها، قد حال دون قيام علاقات جوار بين سكان البلدين، فامتنع العبور بينهما وانقطعت أخبارهما، وانصرمت، بلا رحمة، الروابط العائلية والعلاقات بين الأصدقاء، كما استحالت الأعمال التجارية وتوقفت. وقد أدى تقسيم

بلاد الرافدين، هذا التجمع البشري الذي ضمت أفراده، رغم تعاقب الحكام وعلى مر العصور، أخلاق واحدة، إلى ظهور عادات جديدة ومتباينة انفرد بها كل فريق على حدة في هذا الطرف أو ذاك وراء الجدار. أما بالنسبة لملك بابل الأكادي، نبوخذ نصر، فقد كان هذا الجدار بمثابة وسيلة لحماية حدوده الخلفية، فهو لم يكتف بإعادة بابل إلى سابق مجدها وعظيم شأنها بل نجح أيضاً في التوسع بمملكته باتجاه الجنوب الغربي، فدمر أورشليم وأخضع اليهود إلى «الأسر البابلي» وبنى «برج بابل» الذي غدا مضرباً للمثل، وجعل منه معبداً عظيم الارتفاع خص به مردوخ، الإله حامي بابل، فأعاد إليه اعتباره ليحتل مكانه بين الآلهة العظام. ومثلما حافظت معظم الأقوام البشرية، التي أقامت في وادي الرافدين أو جيء بها إليه، على لغتها الأصلية، كذلك فقد استحال على «بني إسرائيل الذين اقتيدوا قسراً، أن يهتدوا إلى سواء السبيل في «بابل اللغات» البناء الذي علا ٩١ متراً وكرس للـ «إله حامي النظام» وأصبح في العهد القديم رمزاً «لاختلاط اللغات» وبلبلتها: «ونزل الرب ليرى المدينة والبرج اللذين بناهما بنو آدم. وقال الرب:

هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه... والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعوه. فلننزل ونبلبل هناك لغتهم، حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. ففرقهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها» (المترجم من العهد القديم ترجمة دار المشرق).

لم يكن في بابل إلا لغات مختلطة حيرت الأسرى اليهود.. فليس ثمة صدفة، والحال هذه، في أن أسمى كهنة إسرائيل وأنبياؤها هذه المدينة، لفساد مسراتها وضعة أخلاقها، بـ «العاهرة البابلية» إن كل ما يجري هنا يتناقض مع عاداتهم وأنماط معيشتهم التي ينبغي عليهم الالتزام بها والسير على هديها، إن هم أرادوا تجنب غضب الرب وانتقامه، إذ سبق للرب أن انزل بهم شر العقاب لسوء أفعالهم. فأن يتلهوا في معبد عشتار مع نساء أجنبيات وأن يثملوا على مآدب الميسورين وأن يسمحوا لبنات إسرائيل بأن يتزين ويتخضبن، بقحة ودونما حياء، كنساء بابل المتهتكات.. فذلك انتهاك لشريعة ينبغي عليهم الامتثال لها والخضوع لأحكامها إن هم أرادوا أن يقودهم الرب إلى الأرض الموعودة. وحافظ بنو إسرائيل على لغتهم وصانوا أخلاقهم بينما ابتهج، رجال بابل ونساؤها لرؤية آلهتهم تستعيد كامل سلطانها.

في الجهة الأخرى من الجدار، وفي الشرق من بلاد الرافدين، في مملكة الميديين الممتدة بعيداً في عمق آسيا، قلبت أقوال أحد الرجال الأخلاق السائدة رأساً على عقب. وسيطرت على نمط حياة الميديين تلك العقيدة التي تلقى زرادشت، الرسول الإلهي، بموجبها من «إله النور» أهورا - مزدا «كتاب الشرائع» مع وميض البرق وهزيم الرعد، وقد شبهت هذه العقيدة الشعبية، التي تناقلتها الألسن في بدء انتشارها، الصراع ما بين الخير والشر بالصراع الدائر بين قوى الكون فوق الطبيعة. فكان أهورا - مزدا

«روح الخير» وإله السماء، وعيناه هما الشمس والقمر، أما عدوه النقيض فكان آهرمان، رب الظلمات ورمز الشر والقبح وجميع العيوب والآفات التي تصيب الإنسان في هذا العالم.

كان آهرمان أباً للخطيئة والمعصية والكفر.. وكل من يساعده بسوء أفعاله سيصليه استواد إله الموت، الذي لا يفلت من قضائه آدمي، بنار الجحيم الحامية وسيكابد، حتى آخر الزمان، شر الشقاء وأقسى الآلام. وفي مقابل ذلك فعلى كل من يخدم أهورا - مزدا بأفعاله الحميدة وكل من يخشى الله ويحيا حياة رجل عدل وحكمة ألا يرهب الموت ويخشاه. فقد جاء في «كتاب الشرائع»: أن باقتداره (أي العادل) أن يمثل في يوم الحساب بروح طيبة نقية حيث يصدر أهورا - مزدا حكمه على أهرمان فيهلكه هو وجميع قوى الشر هلاكاً قيام لها بعده. بينما الرجل العادل يبعث من جديد هو وجميع الأرواح الطيبة: «وتعود الحياة إلى الأجسام، وتتردد فيها الأنفاس.. ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال».

وقد عهد بالتمييز بين الخير والشر وبين الأفعال المسموح بها والأفعال المحظورة إلى المجوس شُرّاح الأفستا «كتاب المعرفة والحكمة» وقد امتاز هؤلاء الكهنة، الذين اشتهروا بقداستهم وكانوا نصحاء مرشدين للملوك، عن عامة الناس، باحتقارهم المطلق لكل ألوان المسرات والملذات الأرضية.

فارتدوا من الثياب أبسطها وكرسوا أنفسهم لخدمة الإله وطقوس الطهارة المراسيمية، وامتنعوا عن تناول اللحوم، وأمسكوا عن كل أنواع شهوات الجسد ولذائذه، واستغرقوا كلياً في الحياة الروحية، وتوسعوا بصفاء معارفهم لتَصْدُقَ نبوءاتهم، ويأتوا بمعجزات يرى فيها الناس ظواهر سحرية مقدسة، كما كانوا ينعمون، لدى الملك وفي أوساط الجماهير، بأرفع مقام وأوسع شهرة لكونهم مَنَجّمين ومفسرين للأحلام.

وغدا مذهب زرادشت دين الإمبراطورية التي أنشأها ملوك الفرس بعد أن تغلبوا على الميديين وسيطروا على بابل. وتهدم الجدار الميدي واقتلع من أساسه فصار أثراً بعد عين. وقد حل، في هذه الآونة، على بلاد الرافدين والمناطق المجاورة جنس جديد من الرجال حكموا البلاد وفرضوا عليها نفوذهم وأخلاقهم.

كان هؤلاء رجالاً طوال القامة شديدي المراس يطلقون لحاهم ويجدلون شعورهم ويرسلونها لتصل إلى أكتافهم، كما كان الرجال والنساء يستعملون أدوات التجميل. فنشأت من ثم، طبقة خاصة من «المزينين» أطلق عليهم معاصروهم اليونانيون «الكوزمتاي» (التي اشتقت منها كلمة مستحضر التجميل). وقد ارتدى الفرس، من الرجال والنساء، حتى في أيام الصيف القائظ، مما اعتادوا على ارتدائه من الملابس في المناطق الجبلية الباردة: ثلاثة أنواع من السراويل وثياباً داخلية محشوة حشواً تحت فساتين صوفية أو كتانية.

أما القوانين الأخلاقية التي امتثلوا لها ورضخوا لأوامرها، فقد كانت عوناً للمرأة الفارسية دعّم وضعها في الحياة العامة خارج البيت: كن يستطعن الخروج من

المنزل والعودة إليه سافرات دون حجاب، ويمتلكن العقارات ويتصرفن بشؤونهن، وكان في وسعهن إدارة شؤون أزواجهن باسمهم أو بتوكيل منهم.

كان الآباء هم الذين ينظمون شؤون الزواج لمن يبلغ الحلم من أبنائهم. وكانت المرأة لا تستطيع الزواج إلا برجل واحد. في حين أن تعدد الزوجات لا يعد منافياً للأخلاق، لأن بمقدور من يمتلك العديد من النساء تزويد ملك الملوك بالكثير من المحاربين، وفي ذلك تقول الإفستا: «أن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً على الرجل الزاهد بالزواج (من لا زوجة له)، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً على من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل كثيراً على من لا أبناء له» وبالطبع فإن المجوس (رجال الدين) يستثنون من هذه القاعدة العامة. وسيان إن أنجبت هؤلاء الأبناء زوج الرجل أو حظاياه. المهم أن يكون المولودون الجدد ذكوراً. «أن الرجال لا يضرعون ليرزقهم الله بنات، والملائكة لا تحسبهن من النعم التي أنعم بها الله على بني الإنسان». وأنه لشرف يتوق إليه المرء أن ينجب أولاداً للملك. فالأب الذي يعيل أولاداً كثيرين يتلقى من الملك هدية في كل عام، (وملك الملوك) هذا جليل الطلعة رفيع القدر إلى حد يستحيل على العامة من الفانين الفوز برؤيته. وعلى من لا يملك كفايته من الأراضي أو العائدات التي تؤهله لإعالة أسرته الكبيرة أن يطمح إلى المُلْك. سأل زرادشت الإله أهورا - مزدا: «أي إلهي خالق العالم المادي إلهي القدوس ما هو المكان الثاني الذي تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون؟ ويجيبه أهورا - مزدا بقوله: «أنه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن، وفيه ماشيته، وفيه زوجة، وفيه أطفال، وفيه أنعام طيبة، والذي تُكثِر فيه الماشية بعدئذٍ من النتاج، وتُكثِرُ فيه الزوجة من الأبناء، وينمو فيه الطفل، وتشعل فيه النار، وتزداد فيه جميع نعم الحياة». لأن «من يملك بيتاً يفضل كثيراً من لا بيت له».

وليس غريباً أن يكون منع الحمل من أكبر الجرائم التي ترتكبها المرأة في بلد شعاره: للأب الكثير من الأبناء وللملك الكثير من المحاربين. إن الفجور والزنى وكل خطايا الجسد يمكن الصفح عنها، لكن المرأة التي تُجهِضُ نفسها وتَحُول دون حملها «تَسرِقُ» محارباً من جيش الملك، فعليها إذن أن تدفع من حياتها. عندما يقدم الرجل على جلد عميرة (الاستمناء باليد) ويبدد نطفه فعقابه الضرب بالعصا (الجلد)، لأنه هو أيضاً قد حال دون تطور جيش الملك ونمائه. إن الرجال والنساء الذين يدفعون المال ليمارسوا علاقات جنسية «يجب قتلهم» «لأنهم سفلة أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية» ويذكر هيرودوت: «أن الفرس قد أخذوا عن اليونان اشتهاء الغلمان» لكن الأفستا التي تعود وصاياها إلى عهود سابقة ترى في اللواطة شذوذاً وجريمة شنعاء لا يجوز، بأي حال من الأحوال، الصفح عنها: «لا شيء يمكن أن يمحو هذه الجريمة قط».

أن كل ما كان محظوراً وَعُدَّ خطيئة كان «نجساً» غير طاهر، لأنه يدنس الروح. وغدت الجبال النقية التي تَطَهّرَ بها أجداد الفرس والميديين رمزاً لديانتهم. ومن تعاليم الكهنة: أن نظافة الجسد شرط أول لا غنى عنه لطهارة الروح، ففرضوا

الاغتسال (الوضوء) قبل المباشرة بكل عمل من أعمال الحياة اليومية. كما كان لا يليق بالمرء أن يتناول طعامه وشرابه على قارعة الطريق. ولا يليق به أيضاً أن يبصق أو يتمخط أو يقلم أظافره أو يقص شعره أمام الناس، بل الأسوأ من هذا كله أن يقضي حاجاته الطبيعية أمامهم. أن غير اللائق قبيح سيء والقبيح السيئ عمل من أعمال آهرمان شيطان الشر.

كان الصبية من أبناء السادة الأعيان يتعلمون اللباقة وحسن المعاملة، عماد السلوك الأخلاقي، منذ سني حداثتهم. وكانوا يتلقون علومهم في المدارس، إذ اقتصرت مهمة الأم، تبعاً لعادة قديمة. على تربية البنات دون الذكور من أولادها. ففي السنة الخامسة من أعمارهم تنتهي رعاية الأم لهم ليتولى الآباء، بدورهم إعدادهم وتأهيلهم لتربية شاقة سيخضعون لها في الهياكل أو في بيوت المجوس. ولزرع الحقيقة في النفوس وتنشئتها على الحق، كان عليهم أن يحفظوا، عن ظهر قلب، الفقرات الأساسية من الأفستا، لكن المهم أيضاً أن يبرعوا في الفروسية والرمي في القوس وأن يخضعوا لتدريبات جسدية أخرى، فكان عليهم أن يتعلموا الصيد والسباحة ويتحملوا تقلبات الطقس من برودة وحرارة ويقاوموا الجوع والعطش ويصبروا على الصعاب ويتغلبوا على الشدائد. وللتعرف على عمل الفلاحين وما تجود به أيديهم كان عليهم أن ينكبوا على أعمال الحقول، فاعتنوا بالماشية وزرعوا الشجار.

وشمل التعليم أيضاً إطلاع التلامذة على القانون وإحاطتهم به، ليس فقط من أجل أن يمتثلوا لأحكام الشرائع والقوانين ويأنفوا من ارتكاب المعصية والتسبب في الأذية، بل تعلموا أيضاً ألا يصفحوا عن الآخرين إن هم فعلوا ذلك. فإن زل أحد منهم فكذب أو جدف وقذف بشتائمه أو غش وخدع فقد كل حق في ترشيح نفسه إلى أحد المناصب الهامة في الإدارة أو في جيش الملك، فالكذاب «نجس» وكذلك أولئك الذين يأبون الامتثال «لقواعد الصحة» ولا يحافظون على نظافتهم.

كان يشرف على نظافة التلاميذ، الذين يواصلون دراستهم حتى يبلغوا من النضج مبلغاً يؤهلهم للحياة العملية «كهنة يمارسون فن الطب». وقد كان هذا الفن عرفاً وعوناً للآخرين أكثر منه علماً، لكنه كان جزءاً لا يتجزأ من فروض الدين الأساسية، لأن أهرمان الشرير، في الديانة الزرادشتية، خلق ٩٩٩٩٩٩ نوعاً من الأمراض التي تصيب الجسم بالعدوى فيغدو «نجساً». وهنا يأتي دور الكهنة وتلامذتهم الذين يكافحون ليقهروا هذا السحر المؤذي، الوافد من الظلمات، بأدوية يبتكرونها، ويحاربه الكهنة الجراحون بمباضعهم. وقد كانت أجور هؤلاء الجراحين محددة شرعاً بما يتناسب وأوضاع المرضى المادية.

كان «فن الشفاء» مهمة تعود على أصحابها بالربح الوفير وتحتل مكانة لا تعلو عليها، إلا قليلاً، وظيفة الحاكم الملكي أو وظيفة قائد الجيوش. لأن مثل هذه الوظائف تتطلب من المرشح إليها أن يكون على دراية بالقراءة والكتابة، وفوائدها تُحِل أصحابها بين الشخصيات الثرية المرموقة، التي كانت تمرح وتنعم بحياة اليسر واليمن كتلك التي كانت تسود بابل فيما مضى. لأن الفرس وما درجوا عليه، في بدء

انطلاقتهم، من أخلاق صارمة، قد تكيفوا سريعاً مع نمط حياة الشعوب الخاضعة لهم بدعتها وترفها، فما أن يحتل أحدهم مركزاً مرموقاً ويبلغ مرتبة من مراتب الشرف في الإدارة أو في جيش الملك حتى يبادر إلى تزيين منزله وزخرفة قصره فيجهزهما بأغلى التحف التي يأتي بها من البلدان الأجنبية: أزهار ونباتات ورياحين نادرة تزين حدائق تحتضن منازل فاخرة، وموسيقا عذبة الأنغام تشنف آذان السادة الموسرين المتحلقين حول موائد حفلت بما لذ وطاب. واستسلم ملك الملوك ورجال بلاطه لمسرات الحياة يغرفون منها غرفاً وينعمون بما لا يخطر على بال، رغم معرفتهم أنهم، بأفعالهم تلك، ينتهكون قوانين الأفستا ووصاياها. فليس غريباً أن ترى حكام فارس المترفين وقد اتخذوا لأنفسهم، حيث يقيمون، بيوتاً للحريم في سوسة وفي عواصم البلدان الخاضعة لهم. وجرى العرف: أن من حق المرأة، التي تبرهن على موهبتها الخاصة، أن تشاطر السادة الكبار مضجعهم أكثر من مرة.

فليس غريباً، والحال هذه، أن تفقد المرأة الفارسية حريتها. وصار الآباء يزوجون بناتهم قبل بلوغهن سن الزواج، فانعزلن ليعشن في بيت الحريم في عزلة تامة تحت حراسة المخصيين ليطأهن أزواجهن بقصد الإنجاب فقط، فمنعن من الظهور بصحبة الأجانب من الرجال، وتجاوز هذا المنع حدوده ليشمل حرمانهن من رؤية الأب والأخ أيضاً. وما أن يصبحن أمهات حتى ينلن حق الاختلاط مع سراري أزواجهن وحظاياهم، لكن استمرار هذه الامتيازات منوط أيضاً بإرادة أزواجهن المطلقة.

كلما ارتفعت مكانة المرأة وعلا شأنها اشتدت صرامة الانضباط الذي ينبغي عليها الانصياع له، فتلك كانت ميزة «شرف» يتمتع بها الأثرياء من الأزواج، ذلك لأنهم يمتلكون نساء طاهرات الثياب ولا غبار عليهن. فكانوا يتباهون بما ملكت أيديهم، دون غيرهم، ويتبجحون بتضييق الخناق على أسيرات ملذاتهم وقد حشروهن في بيوت حريم زينت بإفراط تجاوز كل حد. فإذا ما أبت النساء الانعزال كلياً اقتصرت حياتهن على معاشرة الحظايا فقط. وهكذا، غالباً ما يحدث أن تنكب النساء مع مثيلاتهن، بسبب إهمال سيد البيت لهن، على علاقات مثلية «السحاق» لأن مثل هذه الممارسات الجنسية الشبقية لم تحظرها الأفستا، فهي لا تصيب، البتة، من غرور الرجال ولا تنال من اعتدادهم بأنفسهم، - بل كانوا يصفحون عن مثل هذه العلاقات بين النساء بوصفها ألعاباً بسيطة غير مؤذية.

كان لزوجات الرجال، الذين تعوزهم القدرة على اتخاذ بيت حريم وسراري، حق حرية التنقل، ولكنهن إذا ما «أسفرن عن وجوههن» تدنت قيمتهن في عيون الرجال ليصبحن مخلوقات رديئات أحط شأناً من الأخريات. وغير جديرات بجذب انتباه الرجال إلا بما يتمتعون به من ظرف ودلال.

فتـاة سـومرية

تعود إلى الألف الثالـــث ق.م.

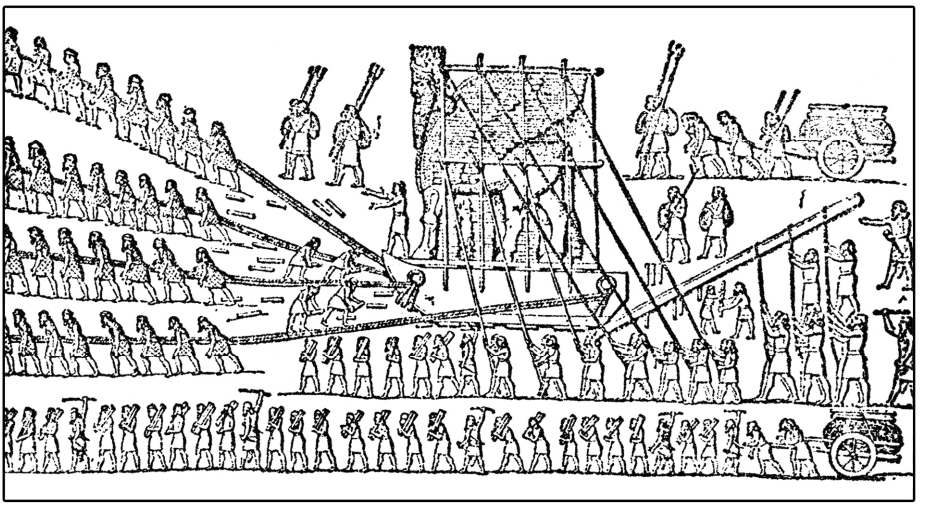

نقل الثور الآشوري المجنح (الآشوريون)

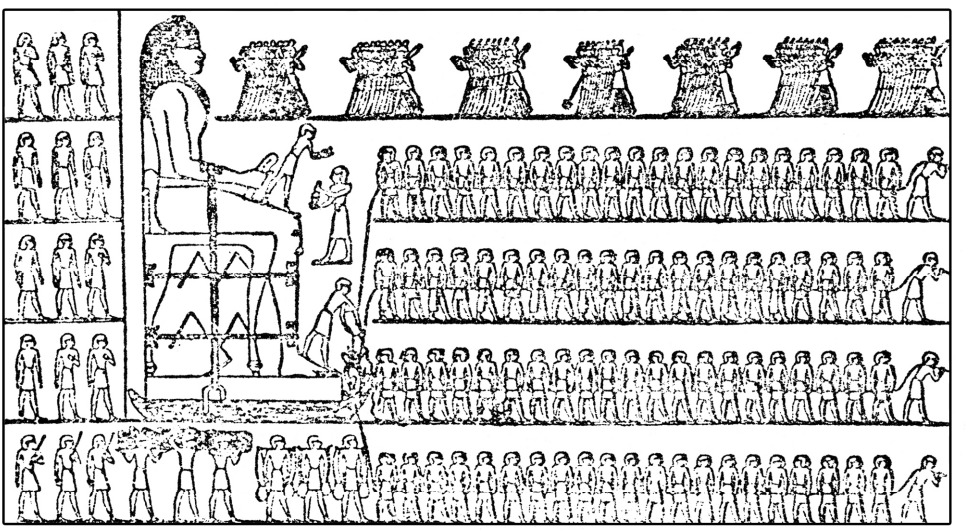

نقل تمثل عملاق من مكان إنجازه إلى المعبد (الفراعنة)

المرأة ذات المثلث

تمثال صغير من الطين المشوي من سومر

(القرن الرابع ق.م. - متحف اللوفر، باريس)